أحــلام

خالد درويش*

خميس الموتى

كان طريقي مشرقاً إلى الحدّ الذي بدأت أشعر فيه بـأنّ كآبتي لا مبرر لها. دهمتني دهشة غير مألوفة منذ سنين... فالأولاد في لهوهم وضوضائهم كأنهم في يوم عيد، والندى يقطر من وريقات شجرٍ وارفٍ والزهر كثير.. الكبار – نساء ورجالاً – يحيّي بعضهم بعضاً بأدب جم، كأن تحياتهم تتصاعد كهباب من قلوبهم البيضاء وعيونهم الضاحكة .. إلا ذلك الرجل الذي ينتظر دوره عند الحلاق وينتظرني ، فقد ظل عابساً، حانقاً، عازماً على تنفيذ قراره الذي اتخذه في رهان سهرة الأمس .. أي قرار وأي رهان وأية سهرة ؟ لم أعد أذكر ، ولكن ما أذكره ويؤرقني هو أن الرجل قرر أحد أمرين : يقتلني أو ينتحر.

كان يجلس في صالون الحلاقة متجهماً، يتصفح مجلة فنية قديمة مخففاً بذلك من وطأة حمأته وسأمه.

رآني فتحفز، رأيته فخفت منه وخفت عليه .. كانت حجتي أضعف من أن تثنيه عن قراره في الانتحار، وكانت قواي أعجز من أن تقاومه إن أراد قتلي. ترددت في دخول الصالون، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء ، وأخذ خوفي يتحول إلى هلع : إن دخلت قتلني وإن حاولت الهروب انتحر. أو: إن دخلت انتحر وإن حاولت الهروب قتلني . وكنت خائفاً منه وخائفاً عليه.. وكان عليّ أن أبقى بين يديه وأن أفلت منه في آن .. وفي اللحظة التي تمكنت فيها من إقناعه بالسماح لي بالمغادرة على أن أعود اليه، تحوّل خوفي إلى قلق من قدر مؤجل، واتجهت إلى الباحة الخلفية للصالون، حيث يطرحون حطام أشياء لا نفع بها، علني أعثر على ما ألهو بإصلاحه فأُلهي بذلك قلقي.

كانت الباحة المجاورة مقبرة غريبة تغصّ بالزائرين. قبور بأحجام وارتفاعات مختلفة وشواهد بأشكال متعددة. أكياس قمح أو أصص نباتات استوائية. وسائد مزركشة أو دراجات معطلة. أرائك عتيقة أو فزّاعات طيور، كانت كلها تحمل أسماء الموتى وتواريخ ميلادهم ووفاتهم، مكتوبة بخط أنيق موجود على لوحات بلون واحد/ الأسود.. وكانت أمي هناك، كعادتها في كل يوم خميس/ خميس الموتى، مع بعض إخوتي بانتظاري، لنزور معاً قبر أختي

سلوى التي ماتت قبل خمسين عاماً عن عمر لا يتجاوز السنة.

كان القبر، قبر أختي، عبارة عن بئر عميقة وواسعة يغطيها حجر دائري ثقيل نقش عليه اسم أختي وتاريخ ميلادها ووفاتها في العام 1950م.

حاولنا، واحداً واحداً ومعاً ، بعناء إزاحة الحجر عن القبر فلم نفلح، كاد اليأس يصيبنا لو لم يقف أخي سالم، ليس لي أخ بهذا الاسم، ساهماً، محركاً بؤبؤي عينيه يميناً ويساراً إلى أن تلاشى في بياض عينيه الواسعتين، ثم تمتم بتعاويذ متلعثمة، وأزاح الحجر العنيد بسبابته وسط ذهولنا وانشراحنا.

تحلقت رؤوسنا حول الحفرة العميقة الواسعة المضاءة بالكاد. حدقت في شبه الظلام الذي يغمر المكان فرأيت ذؤابات نار في حوض من السيراميك، وعلى بعد أمتار كان الماء يتدفق من نافورة من حوض زجاجي ثم ينصرف عبر مسارب وقنوات تنتفخ في مساراتها في أوعية زجاجية مختلفة، فتشكّل في حركتها ما يشبه المختبر.

وثمة في الركن الأيسر من البئر كانت أختي سلوى تتربع متكئة إلى جدار من رخام، صامتة، ساهمة في نقطة محددة في الأرض الإسمنتية وضفائرها تتدلى حول وجهها الحنطي – كانت في الخمسين من عمرها – لعلها كبرت في موتها كما يكبر الأحياء .

وميزت في شبه الظلام رجلاً كهلاً لا يتجاوز طوله المتر الواحد، يلبس قبعة كبيرة ويتدلى من خلفه ذيل غليظ بطول قامته.

كان يذرع أرض القبر بخفة ومثابرة بين النار والماء ، ينفخ في ذؤابات النار ويمسح الغبار عن مسارات الماء.. لعله مكرس لخدمة ساكنة القبر. نبه الضوء الساقط من أعلى الرجل الصغير، فصرخ مذعوراً ورفعت أختي وجهها تستطلع الأمر، وحين عرفت زائريها أومأت إلى الرجل الصغير بإشارة هدّأت من روعه، فسارع إلى سد مجرى الماء المتدفق من النافورة، فأخذ منسوب الماء يرتفع حتى غمر فضاء القبر ووصل إلينا. عرفنا أننا مدعوون لركوب الماء، فركبنا سطح الماء واحداً إثر آخر بهمهمات حبور مكتومة، بثيابنا، بدهشتنا وبرغبتنا في لقاء الغائبين.

أخذ سطح الماء يهبط بنا رويداً رويداً، وكنت أرى من خلال الماء وجه سلوى المنتشي بوصولنا، وكنت أرى الرجل الصغير يفتح مجرى الماء تارة، ويسدّه تارة أخرى بحرص وأناة حفاظاً على الهبوط الانسيابي لسطح الماء.

وصلنا إلى القاع . كان اللقاء دافئاً، عانقت أختي على عجل ومضيت في الردهات والمسارب المدهشة. كنت أشعر بظل الرجل الصغير يتعقبني خوفاً على اتساق أشياء القبر من عبثي، وخوفاً عليّ مما قد يصيبني من مكائد تدبرها عناصر القبر لزوار ما زالوا يحملون رائحة الحياة. كنت أشعر بظلاله، بوطأته.. وكنت أحاول الإفلات منه لتتسع دهشتي على مداها.

التفت اليه، فتسمر مكانه، خائفاً مستكيناً، رأيت وجهه، وجه ذلك الرجل الذي كان ينتظر ليقتلني وهو في مثل هذه الاستكانة، وبمثل هذه القامة.. ولن ينتحر لأنه ميت. وأنا، ما الذي أفعله في هذا البرزخ بين الحياة والموت؟ اقتلني! هل أنا ميت؟ ولكني مازلت قادراً على التذكر: اسمي خالد، واسم أمي هند، وعينا حبيبتي عسليتان،

والليل يعقب النهار حين تغطس الشمس في البحر.. والموتى لا يتذكرون. وأنا ما زلت أشعر بالألم، أطبقت أسناني على شفتي فتألمت.. والموتى لا يتألمون! وأنا ما زلت قادراً على الفرح برؤية النار والماء والأحباب.. فهل يفرح الموتى؟.. ولكن لماذا يلازمني هذا الرجل المسخ كظلي؟

ثمة شارات في هذا الممر تُفصح عما تؤول إليه الردهات والدروب المتعددة من حولي:« إلى الحياة، كان طريقاً شائكاً، وعراً، وقررت أن أمشي فيه تاركاً الرجل الصغير في موته».

مستوصف

حيّرتني تلك الكلمة؛ أتعبني البحث عنها ... تأملت الجبل والأشجار من نافذتي ، حدّقت في الخزانة والمرايا، لجأت إلى الجدار، قلّبت صفحات قواميس ومعاجم كثيرة، أطفأت المدفأة وأشعلت مصباح الحمام بحثاً عنها، ولكنني لم أعثر على ما يدلني عليها . أدرجت المعاني القريبة من معانيها، بلغات شتى على رق أصفر: «هوسبيتال»، «بوليكنيك»، عيادة، مستشفى.. لكن ذاكرتي ظلت مؤصدة إزاء تلك الكلمة بالذات .

وقفت وزوجتي بين الحشد ننتظر دورنا للدخول عبر بوابة دار السينما لمشاهدة فيلم «تايتانيك» .

عند الجدار، تحت صور كبيرة لاشهر الممثلين ، امتد فراش وثير لمن يرغب في الانتظار جلوساً او اتكاءً. رغبت فاتكأت على وسادة مطرزة بكلمات، ما كدت اقرأها حتى سمعت اسمي بصوت امرأة – أعرفها – وقفت قبالتي شاهرة في وجهي مسدساً ملقماً .. وأخذت تصرخ غاضبة:

– أولست، أنت، الذي قطف أزهار عمري كلها ؟!

تذكرت: أجل أنا .

– أولست، أنت، الذي خرّب رحيقي بشفته الغليظة ؟!

تذكرت: أجل أنا .

– أولست، أنت ، الذي رماني في البئر ؟

تذكرت: أجل أنا .

تذكرت فعرفت وجاهة أسبابها. وحين رأيت التصميم في عينيها، انتابني خوفٌ تحوّل إلى هلع ما لبث أن خفت مع أول طلقة أصابت رصاصتها ذراعي، وأصابت الثانية خاصرتي، فيما استقرت الثالثة الأخيرة في ظهري أثناء محاولتي الإفلات من غضبها وإصرارها على قتلي.

لم تستجب طواقم الإسعاف لاستغاثات زوجتي عبر الهاتف، ولم يُجْدِ نفعاً صخب المحتشدين ولغطهم .. وكان عليّ أن أمضي بجراحي إلى الطبيب، إلى العيادة، إلى «الهوسيبتال»، إلى المكان الذي يسمى بتلك الكلمة الكأداء التي ما زالت تستعصي على ذاكرتي .

لم يكن على جراحي أثر للدم، ولم أكن أشعر بأي ألم. مشيت وزوجتي في طريق خاوٍ في حي هادئ. فجأة رأيتها، رأيت الكلمة التي أبحث عنها مكتوبة على شارة في الطريق: «مستوصف»، فشعرت بنشوة عارمة، كتلميذ فرغ لتوه من إنجاز واجبات نهاية الأسبوع وخرج يلهو. ما الذي أزاح عن كاهلي همي؟ ألأنني عثرت على ضالتي؟ أم لأنني حمّلت قاتلتي وزر آثامي ؟.

حديقة غريبة كانت تطرح أطرافها على جانبي الطريق: شجر الصنوبر يحمل مشمشاً ناضجاً ومن أغصان شجر التفاح تتدلى عناقيد العنب، شجرة تين تلمع بين

أغصانها كرات معدنية بلون ليلكي كتلك التي يزين بها المحتفلون شجرة الميلاد، وأشجار جوز هائلة تحمل بطيخات خضراء كبيرة تنفتح بلمس الاصابع على داخلها الأحمر القاني ثم تنغلق وتعود إلى سابق هيئتها .. حديقة غريبة وجميلة – غريبة بجمالها وجميلة بغرابتها.

كان المستوصف عبارة عن بيت حجري قديم، عَلَت بوابته لوحة بيضاء بهلال وصليب أحمرين رُسِما على عجل وسط أزهار ناعمة ونمنمات مبتذلة.

بعد الباب كان أفراد الطاقم الطبي يتجاذبون أطراف حديث كسول في الباحة الإسمنتية المشمسة.

لم يكن لعلتي أي أثر على جسدي، فشعرت بالحرج لولا أن طبيباً نظر إلى وجهي بإمعان، وهمس إلى زميله بجدية تنم عن مهارة ودراية:« جاءنا قبل فوات الأوان!»

.

ثم أدخلني برفق إلى غرفة مضاءة بالكاد، أجلسني على طرف السرير وسقاني جرعة من سائل زعم أنه ينشط حركة الشوائب المعدنية في الجسم. فتح بمبضع حاد جرحاً في ساعدي، ثبت ما يشبه مصيدة فئران على جلد بطني بلاصق طبي، وأخذ يترقب مرور الرصاصات الثلاث بالجرح ليصطادها.

ولتقليص فترة النقاهة إلى لحظات، جر مدفأة حطب من إحدى زوايا الغرفة، سحب منها أنبوباً مطاطياً، دس أحد طرفيه في جرح ساعدي، وراح ينفخ بعزم في طرفه الآخر بخاراً يستنشقه من حين إلى آخر من وعاء زجاجي فيه سائل غريب يغلي.

وكان وعيي يغيب تدريجياً مع كل دفقة بخار يزفرها في شراييني، حتى غفوت تماماً / كأنني أهوي بتثاقل من علو شاهق .

أثينا...

لمدينة أثينا بوابات يغلقها الحراس في التاسعة مساءً، وركاب الحافلة المتوجهة إلى عاصمة الإغريق يتذمرون من بلادة السائق الذي يتوقف بين الفينة والأخرى – بمبرر ودون مبرر – يبول، يقرأ طالعه في صحيفة عتيقة يلتقطها عن الرصيف، ينشّط عضلات ذراعيه بتمارين سويدية.. يدفن زجاجة نبيذ في التراب، ويعلّم مكانها بحجر كبير مميّز، علّ النبيذ يتعتق فيستمتع بشربه في عيد ميلاده الخمسين.

الركاب قلقون .. ينظرون إلى ساعات معاصمهم ويستحثون السائق، إذ ينبغي أن يكونوا هناك، عند مشارف أثينا قبل التاسعة، كي لا يضطروا إلى النوم في العراء المحيط بالمدينة .

تتوقف الحافلة في المسلخ الذي حوّلته السلطات البلدية الى «باركينغ» واسع ومفتوح على بحيرة «الرستن» بين مدينتي حمص وحماة السوريتين .

يترجل السائق، نتبعه. يُخرج من جيب قميصه قطعة من الطين الجاف، ينفخ فيها بعزم فتتحول إلى نارجيلة يأخذ منها أنفاساً عميقة ويرشف من النبيذ الذي عتقه قبل لحظات – سنوات! ويتأمل من كرسيّه الوثير مياه بحيرة «الرستن» الهادئة العميقة؛ هادئة لأنها عميقة.

في اللحظة التي انطلقت فيها الحافلة جنوباً، لمحت شارتي طريق متعاكستين: حلب شمالاً ودمشق جنوباً.

ألسنا ذاهبين إلى أثينا؟! تساءلتُ في سرّي ، فأجابني

صوت في الجوار (لعله صوتي) : دمشق هو الاسم القديم لأثينا ؛ دمشق هي أثينا وأثينا هي دمشق .
إلى مشارف أثينا نصل عند الفجر. لا بوابات للمدينة ، لا حراس ولا أسوار .
تختفي الحافلة ، ويختفي الركاب .. وحيد أنا عند عتبات المدينة الغافية .
صديقي الأثيني «بانايوتيس» في انتظاري . أين ينتظرني؟ فهو يعرف وقت وصولي ولكنه لا يعرف المكان الذي سأصل إلى المدينة عبره .
ينتقل بين الميناء والمطار ومحطة القطارات بحثاً عني .. وأنتقل بين الميناء والمطار ومحطة القطارات بحثاً عنه .. وكلمّا أصل إلى مكان، يمضي بدوره عنه إلى مكان آخر .
يستوقفني بناء حجري كبير وقديم ، تعلو بوابته لوحة خشبية كُتب عليها «ستأتي يا نوبولوس » – اسم عائلة صديقي – أدفع الباب الحديدي الأسود الثقيل وأدخل ممراً مضاءً بمصابيح زيتية بنور خافت .
على جانبي الممر ثمة نوافذ مغلقة بمستطيلات رخامية تحمل أسماء موتى العائلة ، لم أعثر على صديقي، لكنني وجدت اسمه محفوراً على مستطيل رخامي أبيض وسط حشد القبور.
لملمت شجاعتي ، مدفوعاً بفضول واجب ومسكوناً بهاجس غامض أزحت رقعة الرخام، فألفيت حجرة فارغة إلا من قصاصة زرقاء كتب عليها بخط أنيق هو خط صديقي: «لا أمل لي ، لا خوف بي .. حر أنا».
تابعت سيري في الممر الشاحب أتهجى أسماء الموتى وأسماء من ينتظرون موتهم بقصاصات تحمل مواقف وأفكار شتى عن الموت وعن الحياة – صيغته المؤقتة .
رويداً رويداً، تتحول النوافذ المرمرية إلى بوابات وشبابيك تعلوها مشربيات خشبية تفوح منها روائح الياسمين والدفلى والحناء .. ويتحول الممر المقبري إلى زقاق متعرج طويل في حي صامت .
أسمع وقعاً خافتاً لسنابك خيول حراس المدينة يعلو بالتدريج، وأسمع همهمات الحراس المريبة . إنهم يبحثون عني . يستبد بي الخوف .
أحث الخطى، أركض، أعثر في جيبي على مفتاح، أبحث عن باب لمفتاحي، أجده !، أدس المفتاح في أُكرة الباب فيلف دورة كاملة .أعيد الكَرَّة فيلف المفتاح دورات عدة على نفسه. لا جدوى.. وقع سنابك الخيل يعلو ، همهمات الحرّاس المريبة تعلو .. ولهاثي يعلو .
أركض مذعوراً عبر أزقة ضيقة لا أبواب وشبابيك في جدرانها العالية .. يتفرع الزقاق عند نهايته إلى طريقين أحدهما يفضي إلى البحر، والآخر إلى حقل واسع حُرث للتو.
أمضي إلى الحقل . أركض على التراب الطريّ ، أتعثر، أنهض، الاتجاهات متشابهة ، التراب الغض في كل الاتجاهات، الصمت في كل الاتجاهات والخوف في كل الاتجاهات..
ثمّة، فوقي، تحت السماء الزرقاء الواسعة كان يُحلق طير هائل بأجنحة سوداء ورأس بشري وينشد بصوت شجي رتيب آخر أغانيه عن صحوة القلب قبل الموت بلحظات .

---

* شاعر وكاتب فلسطيني يقيم في رام الله.

بيت الأعمى

إبراهيم جابر إبراهيم*

كان لي أختان، واحدة في الخمسين من عمرها، وأخرى في ذيول الثلاثينيات...وأم صغيرة لم تطأ عتبة الثلاثين، تزوجها أبي قبل عشر سنوات طلباً لشيخوخة هانئة. ولأنها أم قليلة التجربة، فقد كان يروقها أحياناً أن تشاركني حبات الحلو القليلة، وألعابي، ودفق الأمومة الذي طالما أفاضت به عليّ أختاي.

كانت عائلة والدي قد سلّمت منذ وقت طويل أن الأختين دخلتا عالم العوانس، ولم يعد ثمة حرج في الحديث أمامهما، أو حتى قبلهما، عن هذا الحظ السيئ.

ولطالما تنهدت الأختان بشكل يستدر شفقة الصخر وهما تتحدثان عن زواج جارة أو صديقة، ثم تنهيان حديثهما بعبارة صارت مألوفة، لكثرة ترددها:«حتى والدنا العجوز وجد من تدفئ فراشه، ونحن كالحطبتين الجافتين»!

كان بيت العائلة مكوناً من غرفتين فقط، بالإضافة إلى مطبخ وحمام صغيرين.. وساحة ترابية واسعة، كما هو حال البيوت في حي فقير أقيم في أرض مشاع، لإيواء عائلات تقطّعت بها السبل، أو أغلقت دونها.

وكنت أرى جيداً، دون أن أفهم، تغامز أختي بالنظرات والضحكات المبتورة، إذ يغلق والدي الـهَرِم باب غرفته على عروسه الطفلة، أمي!

فرغمَ بلوغي التاسعة، كانت أمي ما تزال تُلقَّب بـ«العروس»، ومع أن أختيّ ما كانتا لتستطيبا هذا اللقب في البداية، كونه يذكرهما بخيبتهما في الحصول عليه، إلاّ أن والدي أسكنه على الألسنة كما لو أنه اسمها الحقيقي، فقد كان يداعب فيه غرور الذكر، ويشعره أنه خارج للتو من ليلة العرس!

وكنت أنا سيد الغرفة الثانية.

لم أكن وقتها أفهم الأمر، لكنني الآن، وبعد سنوات طويلة، أدرك أنني كنت ألبي رغبة عارمة لدى المسكينتين بوجود رجل أو ما تيسر من رائحة الذكورة، في غرفة لم تسكنها لسنوات طويلة ويابسة، سوى الأحلام الكسيحة، والرغبات المجهضة.

لا أذكر أن أختيّ قد عاملتاني في يوم كما يعامل الأطفال، كان ثمة أمومة فائضة، ودافقة لديهما، إنما مشوبة برغبة

حاسمة، أن أصير رجلاً في أقرب وقت.
كنت دون وعي، أنشر في الغرفة رائحة تفتقدانها، ولن أنسى ذلك اليوم الذي قررت فيه « العروس» أنني كبرت ولم تعد غرفتها تتسع لي، عليّ إذاً أن أنام في غرفة البنات!
لم تكن الفرحة التي بدت على الأختين متوقعة، فقد ابتهجتا بشكل أثار الريبة لدى العروس، حتى ظهرت كما لو أنها تفكر بالتراجع عن قرارها.
أرسلتا صبياً ليشتري علبة طلاء أبيض اللون، وتعاونتا بنشاط حتى استعادت جدران غرفتهما لونها الذي اختفى منذ سنوات، ثم أصلحتا زجاج النافذة، وعلقتا على الجدار رزنامة جديدة، وأعدتا لي فراشاً جديداً، وبدأتا منذ اليوم الأول لي في غرفتهما تتناوبان على كيّ ملابسي!
كانت نساء الحارة يتندرن على الصبي الذي يخطر كل يوم في الشارع بملابس مكويّة وشعر ممشط بعناية.

* * *

في بادئ هجرتي إلى الغرفة الجديدة، لم أعتد حياة سكانها ببساطة، رغم ما أحدثته فيّ من دهشة، بل دهشات متتالية.. ففي ليلة اكتشفت أن أختي الصغرى تقرأ كتباً كثيرة، وتدخن مثل الرجال.
وفي ليلة أخرى أهدتني حزاماً رجالياً لا أعرف منذ متى كان مخبأً في خزانتها، ومن الذي لبسه قبلي.. ولم أمتلك الفضول لأسأل.
أو ربما لم تتح لي الدهشات المتعددة أن أتوقف عند إحداها لأسأل!
لكن أعظم ما رأيته غريباً، في وقتها، تلك الشخصية الرجولية التي كانت تنطق بها تصرفات أختي الكبرى، كان لها صوت أجشّ لم أقتنع يوماً أنها خلقت به.
وكان لحضورها هيبة لدى أختها، فالصغيرة التي تقضي النهار في وظيفتها، لا تلبث أن تعود مساء لتعدّ الفراش، وتهيئ للطعام وتستمتع فيما بدا لي بتلبية حاجاتها.
كانت الكبيرة تتحدث عن الرجال بسخط دائم، فيما تتلوى الصغيرة بغنج وبقايا اشتهاء إن سمعت بذكرهم.. وغالباً، بل كثيراً، ما كانت تستدرجنا لهذا الذكر.
أما البارعة في سير الرجال، وتزويق قصصهم فهي جارتنا الأرملة، الصديقة اللصيقة للأختين، والتي لا أذكر أنها فارقت بيتنا يوماً قبل أن تتثاءب الأختان مرة عاشرة!
عند ذلك، تشعر الأرملة بأنها صارت فائضة عن حاجة الغرفة، فتسحب طفلها الأعمى من يده وتذهب إلى بيتها.
ورغم أنه أعمى إلاّ أن ابن «الأرملة» كان الأكثر ضيقاً وتبرماً من انتقالي لغرفة الأختين.
أمّا الصغرى، فقد تحدثت مازحة عن ضيقها من حضوري، حين فهمت أنه كانت تسهر شبه عارية أمام الأعمى، الأمر الذي لا تستطيعه أمام عينيّ المبحلقتين!
وإذ كنت، بالنسبة لهما، رجل الغرفة، فقد حرصت أختاي دائماً أن تجلساني في صدر غرفتهما، فيما يمكث الأعمى، الذي دائماً ما أثار ضيقي، على ركبة الكبيرة، التي لا ترفع كفها عن مداعبة وجهه وشعره الخشن.
وكثيراً ما انتبهت أن الأختين تسهوان عن ثوب تكشّف

لأعلى الفخذين، أو قميص انفكت أكثر أزراره، لتسارعان فجأة إلى لملمته إن لاحظتا انتباهاتي، ما عزز شعوري بأنهما كانتا أكثر استرخاء في وجود الأعمى الذي سبقني لينشر في الغرفة رجولة غير مبصرة!

هل كانت الأختان بحاجة عينيه أكثر منه؟ كثيراً ما أرّقني السؤال وما جعله يزداد إلحاحاً، ذلك السؤال الآخر، والخبيث، الذي دائماً ما ثرثرت به الأختان: لماذا تسارع العروس إلى اطفاء الضوء كلما أغلقت باب غرفتها على أبي؟ لكنني مثلهما ما حظيت بإجابة مقنعة.

* * *

هل تدخلت السماء؟ أم هي تلك المفارقات العجيبة التي أحد أسمائها: الصدفة.

لا أعرف بالضبط، لكنني لا أصدق حتى اليوم أن الذي حدث في تلك الليلة لم يكن مدبراً من الشيطان نفسه!

كنا نتبادل القصص السخيفة، ورأس الأعمى تسقط بين لحظة وأخرى على صدره من النعاس فيرفعها... والصغيرة تدخن وتعبث بركبتها برؤوس أصابعها، والكبيرة قد نهضت لتغلي الشاي، حين انطفأت فجأة لمبة الضوء الوحيدة في الغرفة..

وسارعت أفتح النافذة لنرى عتمة قاسية لفت الحي بأكمله.

انتشرت في الغرفة همهمات السخط، وصوت أقدام واثقة لم تفاجأ بالظلام، كان الأعمى يختال بألفته مع العتمة.

وسمعنا الأرملة تتحرك نحو الباب بهدوء.

لا أظنني سأنسى أبداً، تلك اللحظة التي دخلت فيها الأرملة إلى بيتها، سارعت إلى التخفف من ملابسها حتى أحسست أنه بقيّ أقلها، وأنا واقف في عتمة الغرفة بجمود الحجر، وخفة الأبالسة!

وإذ مدت يدها إلى رأسي لتقودني إلى الفراش، ارتدت يدها عن رأسي الأصلع مشككة بما لمست.. ثم عادت تتلمس رأسي ووجهي، ولم تكد حتى انتشر الضوء في الغرفة فصرخت المرأة صرخة هدّت قواي، وما زال تذكّرها إلى ليوم، يبعث القشعريرة في جسمي.

«أنت؟!» هذه الكلمة السؤال هي كل ما سمعت منها في تلك الليلة. ولم أجب بشيء!.

كان الفزع الذي تملّكها كافياً لأصدق أنها فوجئت بي، لكن تلك الليلة تجعلني لا أصدق!

* * *

كانت الأرملة بثياب رقيقة تكاد لا تخفي جسدها الزاهر، وكان رأسي يتأرجح في دوار عنيف، ربما لم أكن أتوقع أن أرى امرأة عارية قبل عشر سنوات أخرى على الأقل، أو ربما لأن الجسد الحيّ قضى على صور غير جاهزة ما زال خيالي القاصر مبتدئاً في رسمها.

لكن الفزع المريع الذي انتاب الأرملة لم يمكث طويلاً، ودون أن تتدارك عريها مدّت كفها لي متمتمة بأن بيتنا بعيد، وأنني لست غريباً، ويمكنني أن أقضي الليلة في فراش الأعمى، وأطفأت الضوء.

وعلى فراشها الذي لا يبعد أكثر من ثلاثة «أشبار» قستها بكفيّ الصغيرة أكثر من مرة وهي مولية لي ظهرها.. كنت

أسمع تقلبها في نومها، تقطعه تنهدات تتداركها قبل اكتمالها، فضجرت من هذه المرأة التي تتأفف حتى وهي نائمة!

ورحت أدير عيني بسرعة من زاوية السقف إلى الزاوية الأخرى فالزاوية الثالثة ثم الأخيرة.. وبقيت أكرر ذلك، كما علمتني أختي الصغيرة، لكي أجلب النوم العصيّ، لكن المرأة ما كانت لتتيح لي ذلك، بدأت أنفاسها تعلو، وسمعتها تبلع ريقها بصوت تجاهد أن تكتمه، والتفتّ إليها فإذا بها تمد يداً مرتبكة تعبث بوجهي.

وبهدوء لم أعد أشعر كيف اختفت مساحة «الأشبار الثلاثة»، التي قستها بكفّي الصغيرة، ووجدتني أندفع إلى حضنها خوفاً من عينيها اللتين تلتمعان بشيء غريب، وفي اللحظة التي اصطدمت فيها بها ارتجفت المرأة من شعرها حتى أصابعها وكأنما مسّ من جان، وشعرت بثيابها الرقيقة غارقة في العرق، لكنها كانت تتشبث بي وتعتصرني وتدسّني في حضنها.

وضعت فمها على فمي بشدّة وصارت كأنما تتنفس من رئتي، وكنت أحاول عبثاً أن أخلصّ فمي منها، وحينما فعلت.. رحتُ، ودون أن أعلم كيف حصل ذلك، أضحك بصوت مرتفع!

لم يوقفها ضحكي الأبله، فشعرت بالحرج، وفهمت، دون أن أفهم، أن الضحك ليس الشيء المناسب لمثل هذه اللحظات، فأعرتها فمي مرة أخرى، لكنها أشفقت على أنفاسي القصيرة أن تختنق فمدت باطن كفها فوق رأسي وأهبطته برفق إلى صدرها، وامتلأ فمي بما لم أره قبل ذلك، ولم تتح لي العتمة أن أتملى منه جيداً في تلك الليلة.

وبدت المرأة ترتجف بشدة، فتملكني خوف من أن أكون قد أسأت التصرف، فسحبت جسدي فجأة وإذا بها تصرخ كذئبة شقها سهم في صدرها، وبقوة الذئبة وقسوتها استعادتني إلى حضنها وهي تلهث وترتجف.. وأنا ألعق العرق الذي اندفع إلى فمي حين لامس عنقها، وببطء بدأ تنفسها يخفت وبدأت ذراعاها القاسيتان ترتخيان عن ظهري، ثم ارتمت على جنبها الاخر، فانسحبت بتردد وحيرة إلى فراش الأعمى!

لم أعرف كيف نمت بعد ذلك، لكنني بالتأكيد لم أكن بحاجة لأن أنقل عيني بين زوايا السقف.. إنما أتذكر جيداً كيف صحوت.

شعرت بشيء يحبو على فمي مثل النمل، ودون وعي أرسلت يدي تدفع الشيء عن وجهي، لكنها اصطدمت بما أيقظني، وبخبث مفاجئ لم أفتح عينيّ، وبقيت أرقب ما الذي سيجري فوقي!

كانت المرأة تتحسس جسدي بكفيّها مرة وبلسانها مرات، وتتمتم بكلمات مقتطعة.

ولم تمكث على حالها كثيراً حتى نهضت وسمعتها تدلق الماء على حالها مثل طفلة تستحم وحدها للمرة الأولى.

في الطريق إلى بيتنا كانت جيوبي ملأى بالحلوى والفستق، وحبات التوت التي «لقّطتها» لي بيدها عن شجرة بيتها.

وقبل أن أصل إلى البيت بخطوات قليلة، وجدت الأعمى تقوده أختي الكبرى إلى بيتهم، فأشفقت عليه وأرسلت كفي إلى جيبه أضع فيها بضع حبات من الفستق والتوت.. فوجدتها ملأى بأطيب مما لديّ!

* قاصّ فلسطيني يقيم في عمّان.